القديسان

بترونيوس وأورسيسيوس

(وغيرهما من تلاميذ القديس أنبا باخوم)

وعن جهادهم وأقوالهم المأثورة

كافة حقوق الطبع محفوظة

مليكه حبيب

يوسف حبيب

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين ؟

حضرة صاحب القداسة أبينا الطوباوى المكرم رئيس الأساقفة

الأنبا شنودة الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين ؟

مقدمة

فى هذا الجزء نقـــدم ما سجله التاريخ عن قيادة القديس تيودورس للمؤسسة الديرية بعد الأنبا باخوم صاحب الشركة وعن الأنبا بترونيوس الذى خلف القديس باخوم ولم يعمر طويلا فى الرعاية والأنبا أورسيسيوس الذى يعتبر إحدى دعامتى المؤسسة الديرية كنيابة القديس أثناسيوس الرســـولى بابا الاسكندرية العشرين وقد كتب إليه القديس العظيم الأنبا أنطونيوس أبو الرهبان يوصيه بتحقيق رغبات الرهبان الروحية والاهتمام بالشئون الديرية . ويسعدنا أن جاء هذا الجزء حافلا بما خلده التاريخ عن طريق الرعاية الحقة والقيادة الدينية الممتازة وأصولها الروحية مدعمة بما أسداه هؤلاء القديسون للنساك والمؤمنين فى عصره وعلى ممر العصور من الارشادات النفيسة والتعليمات الفريدة التى رصعت بها مواضيع الكتاب ، وهى بحق من أروع مفاخر التراث المسيحى فى مصر ، ومن أقدم ما وصل إلينا . وليس عجيباً أن يتجدد شبابها كلما زاد التأمل فيها والتبصر فى معانيها .

وقد أتينا فضلا عن الأقوال المتعددة بتعاليم القديس أورسيسيوس فى بحثه الجامع القيم لإرشاد المؤمنين بالمسيح عامة والرهبان خاصة فى كل زمان ومكان ، وما اتبع هديه أحد وضلّ ، وما سار على نهجه مسترشد وزل . وفيه ذكر للكثيرين من تلاميذ القديس أنبا باخوم وراهبات طابنيسى قديماً . ونسأل الله أن ينفعنا بما فيه ببركات هؤلاء القديسين ولعظمته تعالى الشكر دائماً أبدياً آمين .

† † †

اختيار أنبا باخوم خلفا له

ان اختيار القديس الأنبا باخوم لبترونيوس ليكون خلفاً له ، جدير بأن يكون وحده مكرمة عظيمة ، فهذا التفضيل بين كل هؤلاء الرهبان ، ومنهم الأقدم منه ، ومنهم الممتازون فى الفضيلة ، يجعلنا نفترض فيه جدارة غير عادية . وإن فى ذلك ما يجعلنا نأسف لصمت المؤرخين بشأن التفاصيل عن أعماله ، ولو أن القليل الذى قالوه عنه يبين مقدار استحقاقه لإعزاز أبيه القديس له .

لقد تجرّد تماماً من محبة العالم ، لدرجة انه لم يدخل بيته ابداً منذ اعتنق الحياة الرهبانية ، وقد جذب أخيراً كل أفراد عائلته إلى هذه الحياة ، إذ أن أباه ، واخوته ، وأقاربه ، وخدامه اقتفوا أثره وكرّسوا أنفسهم لله فى جالية طابنيسى ، وأيضاً اخواته دخلن دير الراهبات الذى كانت تديره شقيقة القديس أنبا باخوم . وبخلاف ذلك ، وهب أبوه ، وكان يسمى « بسنيب » Pesnebe ، كل ماله إلى المنظمة الديرية ، وبالأخص المكان المدعو « طيبو »(١) Thébeu ، حيث أسس القديس أنبا باخوم ديراً من أديرته . وفى النهاية سعدت كل هذه العائلة التقية بالثبات فى القداسة وتفيحوا فى الحياة الرهبانية التى عاشوها .

(١) كانت مزبة بمركز دشنا بمحافظة قنا .

وقد قيل عن بترونيوس انه كان ثابتاً فى الإيمان ، متواضعاً جداً فى حديثه ، حريصاً جداً فى كل أعماله الصالحة . ولم يكن يتهاون ابداً ، حتى أثناء مرضه ، وكان دائماً ساهراً على نفسه . وكانت محبته مليئة بالوداعة والشفقة تجاه أخطاء الآخرين ، وهذا ما جعله يأخذ على عاتقه تغيير أسلوب حياة « سلفان الممثل » (أو سلوانس) Silvain le Comédien ، وقد أراد القديس أنبا باخوم أن يطرده من الدير بسبب عبارات الهزل التى كانت تفلت منه كثيراً . إذ أنه كان معتاداً على هذا الأسلوب وهو فى العالم : وبالفعل اصلح الراهب سلفان نفسه تماماً ، وتغير تغيراً كاملا حتى صار موضع اعجاب كل الاخوة .

كان بترونيوس رئيساً لدير « تسمن »[1] Tismen ، عندما قضى الوباء على القديس أنبا باخوم وعلى رهبان آخرين كثيرين. وكان هو نفسه مصاباً بهذا المرض عندما اقتربت وفاة هذا القديس العظيم ، فعيّنه ليكون خلفاً له ، وأرسل إليه يستدعيه على وجه السرعة . ومع أن المرض قد أضعفه جداً ، الا انه لم يهمل إطاعة أوامر أبيه القديس . وعندما وصل إليه وجده قد تنيح .

وقد استخدم كل ما تبقّى له من قوة فى قيادة الرهبان. وكان

(١) بمركز أخميم .

يستخدم كلمة الله وذكريات تعاليم أنبا باخوم وقدوته. ولكنه لم يعش سوى ثلاثة عشر يوماً فى خدمته . وقبل أن يسلم الروح، جمع الاخوة لكى يعرف منهم من الذى يريدونه خلفاً له. فطلبوا كلهم منه أن يختار بنفسه، كما فعلوا مع أبيهم القديس أنبا باخوم؛ فعين أورسيسيوس وكان حاضراً معهم ؛ ثم تنيح ، فدفنوه فى الجبل بالصلوات والاحتفالات المعتادة .

القديس أورسيسيوس

كان أورسيسيوس ممتازاً فى كل الفضائل، ولاسيما فى التواضع بصفة خاصة . ومع انه لم يكن من تلاميذ القديس أنبا باخوم الأولين، فقد استفاد جداً من قيادته ، حتى استحق أن يختاره ضمن كثيرين آخرين ليدير دير « كنوبسك »[1] Chénsbosque . وقد تعجب بعض القدماء من ذلك قائلين انه ما زال شاباً . فرد عليهم القديس أنبا باخوم انه حاز تقدماً عظيماً فى الحياة الروحية، مما جعله يعتبر سراجاً وهاجاً يتألق فى بيت الرب .

وكان حاضراً مع رؤساء الأديرة عندما عيّنه بترونيوس خلفاً له ، كما ذكرنا . وقد رحب الجميع بهذا الاختيار فيما عدا هو نفسه ، فقد اعترض وهو يئن ويبكى كثيراً ، بأن الحمل الذى

(١) قصر الصياد بمركز دشنا بمحافظة قنا .

يريدون أن يفرضوه عليه أكبر من قوته ؛ ولكنهم لم ينظروا لا إلى دموعه ولا إلى اعراضاته، وأضطر أن يحنى عنقه تحت النير.

وإذ كان قد درس تماماً سلوك أبيه القديس أنبا باخوم، اقتفى أثره، وأحيا ذكراه فى وداعته وحميته ويقظته ومثابرته المنتظمة، وبالأخص فى زياراته الكثيرة للأديرة. وما كان قد أخذ بعد من الله نفس الاستنارة الروحية التى كانت للقديس أنبا باخوم فى حديثه عن الأمور الروحية؛ ولكنه كان يستعيض عن ذلك بالمقارنة وبالأمثال التى كانت تجعل الناس ينصتون إليه بسرور.

حديث القديس اورسيسيوس

قال لهم فى أحد الأيام: «انكم لا تجهلون مقدار عمق معرفة القديس أنبا باخوم بالكتب المقدسة، وقد عوّدنا أن يحدثنا بها عن الأمور السماوية. ولكنه يبدو لى، بقدر ما تستطيع قدرتى المحدودة أن تدرك، انه لا فائدة من حثنا بأجل العظات، إن كنا لا نعنى بحفظها فى النفس ساهرين بحرص على حفظ الروح، لأنه بغير ذلك تنسى ما سمعناه، وتسقط سريعاً فى التراخى؛ لأننا عندما نكون فارغين من الأفكار الحسنة، يحدثنا الشيطان مستعدين لتقبل الأفكار التى يوحى بها.

ومثل ذلك مثل انسان اعدّ سراجا ليستخدمه، واهمل أن

يزوده بالزيت. انه عبثاً يحاول اشعاله، فهو ينطفىء حالا ويتركه فى الظلام. ويحدث أحياناً ما هو أمرّ من ذلك، إذ يأتى فأر ويجد الفتيلة مطفأة، فيقرضها، وغالباً أيضاً يحرّ السراج فينكسر إذا كان مصنوعا من مادة سهلة الكسر، ولكنه يمكن إصلاحه واستخدامه من جديد إذا كان مصنوعا من مادة متينة يصعب كسرها. تقول نفس الشىء تقريباً عن النفس التى تهمل العناية بخلاصها. ان الفتور والتراخى ينقصان فيها حرارة المحبة المقدسة رويداً رويداً، إلى أن لا يبقى شىء تقريباً من الحرارة الروحية. أن الشيطان يجتهد أن يلفتها تماماً بالاتعاب التى يسببها له. ولكن إذا كانت هذه النفس قد اعتنت قبل تراخيها بأن تجعل لنفسها بنية روحية قوية فى خدمة الله خشية اهانته، فحينئذ ينفعها جداً تذكار العذابات الأبدية، حتى ترجع إلى الله، وتعود إلى حالتها الأولى التى اسقطها منها التراخى.

هكذا كان يعلم الرهبان مستخدما، حسب قياس الموهبة التى أعطاها الله له، تلك الأمثال المأثورة التى كانت تجعل الناس ينصتون إليه بسرور ويستفيدون دائماً. ولكنه فيما بعد، زاده الله استنارة، وجعل فى مقالاته قوة وحيوية من أجل تعزية الاخوة، فصار لا يعلم بواسطة الأمثال بعد، بل يشرح لهم أكثر فصول الكتاب المقدس صعوبة. وكان يوصيهم كثيراً أيضاً بحفظ

القوانين التى سنها القديس أنبا باخوم ، وكل الأمور التى تصدر إليهم عن الرؤساء .

وفد للقديس اثناسيوس ومقابلة للأنبا انطونيوس

وعندما رجع القديس أثناسيوس إلى كرسيه مكرماً، حسب نبوة القديس أنبا باخوم، أرسل أورسيسيوس إليه بعض الرهبان برئاسة زكا الرئيس العام للنظمة الديرية . وإذ علم هؤلاء أن القديس انطونيوس موجود فى الجبل الخارجى ، أرادوا أن ينتهزوا الفرصة لرؤيته ليطلبوا بركته.

وحالما علم الشيخ القديس انهم قادمون نحوه ،قام من المكان حيث كان جالساً، وبالرغم من كبر سنه إذ كان عمره ثمانى وتسعين سنة ، تقدم نحوهم مظهراً سروراً عظيماً، وسألهم بشوق عن أخبار القديس أنبا باخوم . فلم يردوا على سؤاله سوى بالدمع ، ففهم بسهولة أنه تنيح . وحاول أن يعزيهم بالثناء على أيوبهم القديس ، ثم حثهم أن يتشجعوا ويعملوا بكل قواهم من أجل كسب الكمال المسيحى .

ثم سألهم عن الذى خلف القديس أنبا باخوم . فقالوا له أن القديس كان قد عين بترونيوس، ولكنه توفى بعد أيام قلائل، فأقاموا أورسيسيوس مكانه .وسواء أكانت سمعة أورسيسيوس

قد وصلت إلى القديس أنطونيوس ، أو أعلن الله له باستنارة فائقة الطبيعة ، وذلك أمر لا يستغرب بالنسبة للقديس العظيم أنبا أنطونيوس ، فإنه قال لهم :

« بما انكم ذاهبون إلى البطريرك القديس أثناسيوس، فقولوا له نيابة عنى : «أن أنطونيوس يرجوك أن تتكرم بالعناية بأبنائه الروحيين» . وأعطاهم خطابات توصية للقديس رئيس الأساقفة ثم أعطاهم بركته .

وإذ تسلم القديس أثناسيوس الخطابات التى أعطوها له من طرف القديس العظيم أنبا انطونيوس ، جعل لهم فى اعتباره كل علامات التكريم والمحبة التى كان ممكن أن يرغبوا فيها . وسنرى مقدار اهتمامه بمساندة منظمتهم الديرية .

كان أورسيسيوس من جانبه يولى المنظمة الديرية كل عنايته، وبالفعل ثبتت تحت إدارته فى التقوى وفى الوحدة التى تركها فيها القديس أنبا باخوم ؛ ومن جهة أخرى كان يساندها الكثيرون من تلاميذ القديس القديماء الذين نجوا من الوباء ؛ ولكن إذ كان الوباء قد قضى على الكثير من الرؤساء ، كان على أورسيسيوس مسئوليات عديدة . ويبدو أن التعالى بدأ يتسلل إلى نفوس بعض الرهبان ، مما كان يهدد السلام الذى كان أورسيسيوس يحاول أن يحافظ عليه بكل العناية الممكنة .

ويمكن استنباط ذلك من واقع تأنيبه لهم أثناء محاضرة روحية ، قال :

محاضرة عن تدعيم الوحدة (في المؤسسة الدينية)

« انى أرى بعضاً منكم يتكالبون على الوظائف . ما كان الأمر كذلك فى حياة أبينا الطوباوى . ما كان أحد يطمع إلا فى أن يسود التواضع والطاعة ، خوفاً من أن نكون آخرين فى ملكوت السموات . انكم تعرفون كم كلفنى أن أخلف بترونيوس عندما عينني مكانه ، كنت أرى الخطر الكبير فى قيادة الأرواح . وما نهجت فى ذلك غير نهج كل القديسين . فقد أعطانا موسى أول الأنبياء مثالا لذلك عندما أمره الرب أن يقود شعبه . فقد التمس منه أن يعفيه من تلك الخدمة الصعبة ، وما أخذها على عاتقه إلا خوفاً من إغضابه .

أما نحن يا اخوتى ، فهل نستطيع أن نسمع قول الرب مخلص العالم أن من يرفع نفسه يتضع ، ونحتفظ فى قلوبنا بالأطماع ؟ هل نجهل أنه لم يُعط لكل الناس أن يحكموا بجدارة ، وأن ذلك ليس إلا للذين ارتفعوا فوق الآخرين بسمو فضيلتهم ؟ انتبهوا إلى هذا المثل : ان كانت لبنة غير مهيأة تستعمل فى أساس مبنى على ضفة النهر ، فهى تذوب فيه فى أقل من يوم ، ولا تفيد المبنى فى شىء ؛

ولكن إن كانت معدّة جيداً ، فسوف تصير صلبة مثل الحجر . هكذا يكون أولئك الذين لاتزال قلوبهم وأرواحهم ترابية وهم ليسوا ممحصين جيداً بنار التعاليم الإلهية ، فإنهم لايلبثون أن يفشلوا فى مشروعاتهم ؛ لأنهم يتعرضون لعدد كبير من الصعوبات والتجارب ، ويتعين عليهم قيادة أناس كثيرين . لذلك لا نستطيع أن نمتدح بما فيه الكفاية أولئك الذين إذ يشعرون أن ليس لهم القوة الكافية لحمل ثقل الحكم ، يرفضون أن يأخذوه على عاتقهم خوفاً من التورط فى مخاطر عظيمة . وعلى النقيض فإن الذين ثبتوا فى الإيمان راسخين ، لا يزعزعهم شىء ؛ نراهم يساندون بعضهم بعضاً دائماً فى أصعب الظروف » .

هذه الأطماع التى كانت تراود بعض الرهبان كان القديس يحتد أن يخمدها ، فهى المقدمة للاضطراب الذى ما لبث أن دبّ فى فريق من الرهبان وسبب له الكثير من القلق والاستنكار .

كان عدد الرهبان قد إزداد كثيراً ، وشجع لزوم الانفاق على اقتناء الأراضى واستعمال أساليب أخرى لتدبير معيشتهم . على أن الاهتمام بالأمور الزمنية ، عندما يؤخذ بحماس زائد خلافاً لروح القانون ، فإنه يضعف التأمل ويفضى إلى تجرد القلب عند كثير من الرؤساء أو المسئولين ، الأمر الذى يزعزع قوة النظام .

كان « أبولون » Apollone رئيس دير « منكوز » (١) Moncoze أول من أعطى اشارة البدء . فإنه تبعاً للقاعدة التى وضعها القديس أنبا باخوم ، يلزم أن يكون كل شىء مشتركاً ، لكن أبولون بدلا من ذلك أراد أن يمتلك أموالا خاصة تزيد أيضاً عن احتياجات ديره . أما القديس أورسيسيوس الذى كان الواجب الملقى على عاتقه يحتم عليه السهر لكى يمنع أى أحد من أن يأتى بجديد من عنده ضد القانون ، فقد أنذره بمحبة عن خطئه ، ثم بعد ذلك وبخه بأكثر صرامة ، ولكن « أبولون » لم يقبل التأديب .

ولقد دفعه عدو الخلاص الذى كان قد هدّد القديس أنبا باخوم فيما مضى بأنه سوف يبث التراخى فى المؤسسة الديرية بعد موته ، وشرع أبولون فى الانفصال ، وأراد أن يجعل ديره أشبه بدير مستقل عن النظام الباخومى .

وسرعان ما حذ البعض حذوه . واستند آخرون إلى عمله من حرص أورسيسيوس لكى يوقف الشر ، كان يتألم لرؤية مجهوداته تذهب هباء أمام عناد تلك النفوس المشاغبة التى لا تمتثل .

(١) باخاس بمركز فرشوط بمحافظة قنا .

فى هذا الموقف الحرج ، فكر فى أن يشرك معه فى الإدارة أحد الرهبان ممن يستطيع أن يعيد الوئام تبعاً لثقة الاخوة فى نصائحه . كان لابد أن يكون هذا مختار الله ، وذلك ما اجتهد أن يناله بواسطة الصلاة .

وانفرد لذلك الأمر فى مكان منعزل ، حيث انطلق فى أنينه وتوسلاته إلى الله ، وصلّى هذه الصلاة المتواضعة :

« أنت تعلم يا رب أن عبدك بترونيوس أوصانى وهو يسلم الروح أن أعتنى بسلوك الاخوة وأن أعمل على تقديسهم ، ولكننى آسف لأنه باستثناء البعض الذين يخدمونك بأمانة فى حفظ القوانين التى وضعها أبونا القديس أنبا باخوم . فإن الآخرين لا يريدون أن يستمعوا إلى آرائى ، ويفضلون أن يتبعوا هوى قلوبهم . ولا يمكننى أن أرى كل هذه البلبلة فى الأديرة دون أن تخالجنى ألم كبير جداً ، لاسيما انى لا أعتقد انى أعطيت لهم الفرصة لذلك ، بل بالحرى بذلت كل جهدى لكى أحافظ على السلام بين النفوس يا إلهى ، انى لست أحزن بسبب هذا الدير فقط ، ولكننى أرى الشر يجد طريقه إلى الأديرة الأخرى ويهدد بتبديل الهدوء فيها أيضاً ، وأخشى الاّ يبقى فيها فيما بعد أية اشارة إلى هذا الاتحاد

الجيل الذى كان يسود فيها فيما مضى . وإذ انى لا استطيع يا رب فى هذه الشدة ان أحمل هذا الحمل الثقيل ، أتوسل إليك أن تعيّن لى بنفسك رجلا مملوءاً من الحزم والشجاعة ، يمكنه أن يعالج الأخطاء ، وسوف اعرضه على الرهبان لكى يقودهم ، حتى لا اصير مداناً بخسارة أرواحهم ، الأمر الذى قد يحدث بغير ذلك » .

وفى نفس الليلة أعلمه الله بإرادته بواسطة حلم عجيب لم يصعب عليه تفسيره . رأى سريرين ، كلاهما جميل وثمين بدرجة واحدة ، ولكن الواحد كان قديماً وبالياً ، والآخر جديداً : وبالتالى كان هذا الأخير أكثر صلابة وثباتاً من الآخر ، وسمع هذه الكلمات : أرح نفسك على السرير الجديد . وعندما استيقظ أخذ يفكر فى هذه الرؤية ، **وفهم ان تيودوروس التلميذ المفضل عند القديس انبا باخوم ، هو المشار اليه بهذا السرير الجديد** . وأراحته هذه المعرفة فى محنته ، لاسيما انه كان لتيودوروس عنده كل الاعزاز ، ويعرف انه رجل جدير بأن يسمو فوق ضجر الآخرين ، وأن يهدئهم بحلاوة تواضعه .

فمنذ الصباح أخذ على عاتقه دعوة كل رؤساء الأديرة المختلفة ، باستثناء تيودوروس ، ولما رأى ان كلهم كانوا مجتمعين قال لهم :

« انكم لا تجهلون الاضطرابات التى تهز مجموعتنا الديرية . لقد تألمت وقتاً كافياً ، وكنت آمل أن يسود الهدوء من جديد بعد العاصفة ، ولكنى خذلت فى انتظارى ، ولم أرَ السلام يعود . وليس ذلك فحسب ، بل رأيت الفوضى تزداد . انى اعترف لكم انى لم أعد استطيع أن أتحمل وحدى كل هذه المسئوليات ، وأفخر بأنكم لن ترغمونى ، طالما أرى انى لا استطيع ان أعالج شيئاً . وافتكر أن تيودوروس هو الأجدر بأن يحكم المؤسسة الديرية فى الظروف الراهنة ، لا سيما انه منذ زمان طويل قد اكتسب تقدير كل الرهبان ، كما كان يتمتع بتقدير أبينا » .

واستقبل الجميع هذا الاختيار بفرح ، لأنهم كانوا يثقون ثقة كبيرة فى تيودوروس منذ مدة طويلة . فأرسلوا يستدعونه لكى يعينوه أباً عاماً ، وفيما كانوا ينتظرونه ، انسحب أورسيسيوس فى هدوء إلى دير « كنوبسك » Chenobosque ؛ ولكنه سرعان ما اضطر للعودة ، لأن تيودوروس كان يصر على أن يرفض بتاتاً أن يحل محله حتى يتفاوض معه .

وعندما رجع ، نجح فى إقناعه بأن يقبل ان يأخذ مكانه ، ثم عاد راضياً جداً إلى دير « كنوبسك » ؛ وبعد بعض الوقت تركه ليذهب ليسكن فى دير « منكوز » ، إما لكى يبين انه

لا يحقد اطلاقاً على رهبان هذا الدير حيث كان قد بدأ الشر، أو لكي يذوق فيه فوائد العزلة والطاعة في حياة خاصة .

ولكن تيودوروس لم يأخذ الأمر هذا المأخذ : فما كان يعتبر نفسه سوى نائب له في الإدارة . وبالرغم من أن دير « منكوز » كان أبعد من دير « كنوبسك » بالنسبة لدير « بابو » حيث كان قد جعل مقره ، الا أنه ما كان يهمل أن يذهب إلى « منكوز » لكي يأخذ رأيه في كل المسائل . وعلاوة على ذلك، دعاه أن يسكن في « بابو »[1] لكي يقوم فيها بإلقاء محاضرات روحية على الاخوة . وأراد له أيضاً أن يفتش على الأديرة مثله. ولم يرد تيودوروس إلا أن يكون نائباً لأورسيسيوس ، وكان اتحادهما وثيقاً جداً حتى صار سبب عجب الرهبان وتعزيتهم .

كانا كلاهما محل تقدير القديس العظيم أثناسيوس الرسولي ، وكان يعتبرهما دعامتي مؤسسة طابنيسي الديرية الثابتتين ، وكان يهتم بها بمحبة أبوية . وكان يحرص على الآ يتركا الإدارة إذ كان يعتبرهما جديرين بها. ولكن بالرغم من يقظتهما واجتهادهما في تدعيم القانون وانهما كانا يحافظان على المجموعة الديرية في حالة انتظام حاز الاعجاب للغاية ، الا اننا لا نستطيع أن نخفي

(١) فاو بمركز دشنا يحافظ قنا .

ان الطمع في الأموال الزائلة كان عثرة للبعض أحياناً، الأمر الذي كان يسبب اسفاً شديداً لأورسيسيوس ولتيودوروس، ويجعلهما يئنان بلا انقطاع أمام الرب .

تسلم اورسيسيوس القيادة بعد تيودوروس

أخيراً كان من بواعث الألم لأورسيسيوس خسارته في تيودوروس ، وقد اضطر أن يتسلم مقاليد الإدارة وحده . لقد كان تواضعه يجعله يعتبر زميله أجدر منه على قيادة الآخرين ، واشتهى أن يفديه بنفسه ، وطلب ذلك من الله بدموع كثيرة وأنين . كان يقول وهو ساجد ووجهه إلى الأرض :

« يا رب ها انك مزمع أن ترفع أبانا عنا ، وهو الذي اعطيته أفضل موهبة لإعادة الهدوء في نفوسنا المضطربة بتجارب متنوعة . فمن تأتمنه بعد على العناية بأرواحنا ؟ ارفعني بالحري من هذا العالم ، وامنح الاخوة من يكون أجدر مني لاقتيادهم إلى الكمال » .

كان تيودوروس قد سبق أن أخطره بذلك ، وكان قد نال من الله بصلاته فوق قبر أبيه القديس باخوم انه لن يبق طويلا على الأرض . وهكذا يموت تيودوروس اضطر أورسيسيوس ان يأخذ على عاتقه كل حمل الرئاسة ، وقد أعلنت له إرادة الله

بواسطة اشارة القديس أثناسيوس إليه عندما كتب إلى رهبان طابنيسي ليعزيهم فى وفاة أبيهم القديس ؛ وبقوة أعظم واستنارة أكبر اعطاها له الرب فى فهم الكتب المقدسة .

ظل مدة طويلة بعد ذلك يحكم المؤسسة الديرية وينعم بالهدوء ؛ وأخيراً تنيح فى سلام الرب ؛ ولا يعرف فى أى سنة ولا فى أى يوم كان ذلك .

والمعتقد انه أضاف مع القديس تيودوروس بعض البنود إلى القانون الذى وضعه القديس أنبا باخوم ، حسبما رأيا ذلك لازماً بالنسبة للظروف . ولذلك نجد أن عنوان القانون الذى ترجمه القديس « جيروم » (ايرونيموس) : وصايا وضعها ثلاثة من القديسين .

ويقول عنه « جناد » Genaade انه استوعب من الكتب المقدسة تماماً ، وأنه عندما اقترب وقت نياحته ، ترك لرهبانه بحثاً فى النسك ، كوصية روحية ، مصلحاً بملح إلهى ، يحتوى بالايجاز على كل ما كان قد وجده فى العهد القديم والعهد الجديد مما يناسب احتياجات الرهبان على وجه الخصوص .

+ + +

فى هذا البحث يتحدث القديس أورسيسيوس أولا إلى الرهبان بصفة عامة . فيحثهم أن يحترزوا من أن يطرأ عليهم ما يجعلهم مخيين عن الوطن السمائى فى النهاية بسبب خيانة ؛ فيسلمون إلى عبودية الشيطان القاسية ، مثل الاسرائيليين الذين طردوا من بلادهم بسبب خطاياهم ، وسبوا فى أرض غريبة ، طبقاً للوم الذى يوجهه اليهم النبى . لذلك يلزمهم أن يأخذوا فى الاعتبار انه وإن كان الله لا يعاقب على الخطية دائماً فور ارتكابها ، فإنه لا يتبع ذلك انه يجهلها ، أو ينساها ؛ ولكنه يحتفظ لنفسه بأن يعاقب عليها بأكثر شدة عند الخروج من هذا العالم . عندما يفصل بين الرهبان الأشرار وبين الرهبان الأمناء ، ويسلم أولئك إلى العذابات الأبدية ، وينظرون الآخرين يشتركون مع الآب ومع اخوتهم فى المكافأة التى استحقوها من أجل انتصاراتهم .

« هكذا فلننظر جيداً ما هى الطرق التى نسلك فيها . لنفحص بجدية مسالكنا ، حتى نرى ما إذا كانت مستقيمة أو لا . لا نغفل عن أنفسنا ولا نترك أنفسنا تنعس نعاساً عميقاً . لنباشر بشجاعة وصبر أعمال التوبة وممارسة الفضائل الدينية ، ولنجتهد أن نسلك

فى أثر القديسين ، وفوق كل شىء فى أثر ربنا يسوع المسيح رئيسنا وقدوتنا ، مثابرين بأمانة فى الحالة المقدسة التى دخلنا فيها » .

وبعد ذلك يوجه حديثه إلى رؤساء الأديرة ، سواء أكانوا يشغلون المركز الأول أو الذين فى المراكز الثانوية ، ويعطيهم قواعد ممتازة من أجل حسن قيادة الأرواح التى اؤتمنوا عليها. انه يريدهم أن يعيشوا مع رهبانهم فى انتظار مجىء المخلص ، ويكونوا مثل الجنود تحت السلاح ، دائماً فى حالة استعداد للمعركة . يقول لهم بعد ذلك :

« احذروا من أن تحتقدوا كثيراً من الأمور الزمنية ، فتهملوا الأمور الروحية ؛ واحذروا كذلك من أن تحطوا كثيراً الأمور الروحية، لدرجة انكم تجعلون مرؤوسيكم يتألمون من جهة الأمور الزمنية . ولكن اعتنوا بأن تديروا معيشتهم من حيث الروح ومن حيث الجسد ، خوفاً من أن تحطوا الرهبان فرصة الوقوع فى التراخى » .

ويقول أيضاً : « أن رؤساء الأديرة لا يلزمهم أن يعتبروا مرؤوسيهم كخدم ؛ بل بالحرى كأخوتهم وكتلاميذهم، فيقاسمونهم التعب والتعزية . يلزم الا" يتصوروا أنهم أكلوا ما يطلبه الله

منهم إذا عملوا على تقديس أنفسهم وحدهم ، كأنه لا يهمهم ما يحدث للآخرين طالما هم يخلصون ؛ لأنهم ، كما يقول ، يجلبون على أنفسهم بحق ذلك اللوم الذى وجهه أحد الأنبياء إلى رعاة اسرائيل الذين كانوا يكتفون بتغذية أنفسهم ، دون أن ينكروا فى رعاية رعيتهم . يلزمهم بالأحرى أن يسهروا بعناية فائقة على الأرواح ، ولا يهملوا أحداً ، ولا يتوقفوا عن التعليم والانذار والتشجيع وتقديم القدوة الصالحة .

ليحذر الرؤساء جيداً من أن يفضلوا اطلاقاً البعض على الآخرين ؛ أو أن يحبوا البعض ويتباعدوا عن الآخرين ، لأنه ربما يحبون من لا يكون مرضياً بالأكثر عند الله ، ويكرهون آخر يحبه الله كثيراً. بل ليحافظوا على سلوك متساو إزاء الجميع. وتبدو هذه النقطة ذات أهمية جوهرية فى نظر القديس ؛ فيرجع إليها فى مقاله لكى يلبثها فى الأذهان أكثر . ويضيف قائلا :

« سوف اعلنها كثيراً ، وان أتعب من تكرارها . يجب الا" نحب البعض ونكره البعض الآخر ؛ يجب الا" نعتنى بهؤلاء ونهمل الآخرين . فانكم بذلك تضيعون كل أجر أعمالكم ؛ وبينما تفكرون انكم وصلتم إلى ميناء السلام ، تكونون قد

غرقتم بظلمكم ، لأن الديان الأعظم الذى لا يحابى بالوجوه ، يعاملكم فى يوم الدين كما عاملتم اخوتكم » .

لا تكن ابداً المحبة التى عند الرؤساء نحو أحد مرؤوسيهم سبباً فى التقليل من شأن نقائصه ، ولا يحملهم النفور الطبيعى إلى اساءة معاملة أحد . إذا اخطأ إليهم أحد العصاة ، أو اعترض على التأديب ، فلا يقولوا فى قلوبهم انهم لايريدون أن يتحملوه ، أو أن يكلفوا أنفسهم تأنيبه ، ولا يهمهم أن يهلك أو يخلص ؛ لأن مثل تلك النزعة تنم عن الكراهية والغضب ، ويلزمهم أن يتأثروا من تورط أخيهم فى الخطأ أكثر من تأثرهم بالإساءة التى حاقت بهم من جراء خطيئته .

يجب أن يسلك الرؤساء فى كل شىء بموجب هذا وهو انه لزاماً عليهم أن يقفوا يوماً ما أمام محكمة يســـوع المسيح ، ويعتبروا انه أمر مرعب أن يكون على الانسان أن يقدم حساباً عن نفسه ، يلزم أن يخافوا بالأكثر من وجوب تقديمهم حساباً عن الآخرين أيضاً . لا يتصوروا أن احداً سوف ينسى ابداً أى عمل من أعمالهم . لن ينقصهم مَن يتهمهم ، وسوف لايكون من قضاتهم الناموس والأنبياء فقط ، بل أيضاً أبينا القديس أنبا باخوم يقول :

« أيها الذين تحكمون الأديرة ، كونوا فى حالة يقظة دائمة ، واعطوا كل عنايتكم للأخوة فى عدل وخوف الرب . لا تستغلوا سلطتكم بكبرياء ، بل اجعلوا أنفسكم بتواضعكم قدوة الآخرين ، كما فعل كذلك مخلصنا نفسه ، وكما كان يفعل القديس بولس الرسول ، الذى لم يكن اهتمامه قاصراً على الكنائس بصفة عامة فحسب ، بل كان يبكى مع الحزانى ، وكان يتصرف حسب احتياجات كل فرد .

لنحذر أيضاً الا يعثر من جهتنا أى أحد من الذين اؤتمنا عليهم ، فيسقط بسبب غلطنا . لا نحتقر شعور أحد ، خوفاً من أن يهلك بسبب تبلد شعورنا نحوه ، هذا ما كان أبونا القديس باخوم لايفتر عن توصيتنا به » .

ان رؤســـاء العائلات المختلفة يلزمهم أن يكونوا دائماً مستعدين أن يجاوبوا على الأسئلة المختلفة التى يوجهها إليهم الرهبان من أجل خلاص نفوسهم . يلزمهم أن ينذروا الذين يتغيبون ، وان يساعدوا صغيرى النفوس ، وأن يقوّوا الضعفاء ، وان يتصرفوا تجاه الجميع بتواضع وصبر ، وأن ينتبهوا إلى تحذير الرسول القائل : أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم ، بل تدرجوا

بهم فى النظام والتأديب حسب الرب ، واعلموا أنه يُطلب كثير من الذى أخذ كثيراً ، واؤتمن على أمور أعظم .

وأيضاً لايلزمهم أن يعتبروا كثيراً ما يوافقهم ، بل مايفيد الاخوة . فإذا حدث أى شر فى العائلات بسبب اهمال الرؤساء أو الربيته ، فليفتكروا انه بخلاف المرؤوسين الذين اخطأوا ، فإنهم أيضاً مدينون أمام الله ، طالما انه بسبب عدم يقظتهم اقترفت الخطية ، وهذا ما كان أبونا طيب الذكر معتاداً أن يبينه لنا كثيراً .

والذين يشغلون المراكز الثانوية فى كل عائلة يلزمهم أن يجتهدوا أن يكونوا متواضعين وودعاء ، وان يتبعوا بأمانة وصايا القدماء ، ويخضعوا للحياة المشتركة ، ويسهروا على حفظ كل الأمور لكى يخلصوا أنفسهم .

وبعد أن بيَّن القديس أورسيسيوس للرؤساء ما هى التزاماتهم ، وجه حديثه إلى الرهبان ، فأخذ يحثهم بقوة بأقوال كثيرة من الكتاب المقدس تلائم عمل تقديسهم . يقول :

« كونوا مثل الخدام الأمناء ، الذين ينتظرون سيدهم ، احقاؤهم ممنطقة وسرجهم فى أيديهم . لا تتضجروا من طول

العمل ، معتبرين انكم ستدخلون يوماً إلى الوليمة السمائية . اخدموا الرب بفرح ، كونوا خاضعين لرؤسائكم ، تجنبوا التذمر والنقاش الباطل ، انشغلوا بواجباتكم ببساطة ، حتى تكونوا مزينين بالفضائل وبحافة الله ، فتستحقوا عطية الله التى شرفكم بها .

تذكروا انكم هيكل الله ، وانه يهلككم إذا أفسدتموه . لا تحزنوا الروح القدس فيكم . عيشوا فى طهارة عظيمة ، حتى يمكن أن يقال عنكم انكم حديقة مغلقة ونافورة مختومة . ارفضوا كل الشهوات الأرضية الباطلة ، ولا تهتموا إلا بتكميل مشيئة الرب » .

ثم يبين لهم امتياز دعوتهم وسعادتها ، وقوة الوسائل الموهوبة لهم ليكونوا لله كلية . يقول :

« لنعتبر مقدار النعمة التى اعطاها لنا الله بواسطة أبينا القديس ياخوم حتى نرفض العالم وكل مشتهياته . ما هى فرصتنا الآن وما هى حجتنا فى شغل عقولنا بالاهتمامات الزمنية؟ لنا رؤساء يهتمون بها من أجلنا ، وهم يديرون معيشتنا من جهة الملبس والطعام ، فى حالة المرض وفى حالة الصحة . ولكن إذ تحررنا من هذا النير ، فلنحذر من أن نخضع أنفسنا له من جديد برغبتنا فى اقتناء أى شىء ، أو بخوفنا من أن نفتقده . أن ذلك بمثابة العودة إلى قيئنا .

ما الفائدة أن يكون لنا رداء زائد ، أو طعام ألذ ، أو سرير أفضل ، بينما يلزمنا أن نحافظ على وحدة المعيشة مع اخوتنا ، وانه ما كان هناك أصعب من صليب يسوع المسيح ؟

لنتذكر أن آباءنا بوضعهم لنا القوانين التي اعطوها إيانا ، قد بنوها على أساسات الرسل والأنبياء والتعاليم الانجيلية التي لا تتزعزع ، وأهم من ذلك ، حجر الزاوية الذي هو يسوع المسيح . اننا باتباعنا لهذا المعلم الإلهي قد نزلنا من التجبر الذي يفضي إلى الموت ، إلى التواضع الذي يؤدي إلى الحياة ، وقد تركنا الأول لكي نسلك في الفقر ، واستبدلنا الملذات الخطرة بحياة النسك والاعتدال » .

التجرد

ويقول أيضاً : « اني استحلفكم أن تثبتوا باستمرار في القرار الذي اتخذتموه بدخولكم الحياة الرهبانية . أنظروا إلى أوامر أبينا كأنها سلم سري يرفع إلى السماء . لا تشتهوا مزيداً بعد أن وطأته اقدامكم . اكتفوا بالضروري في احتياجات الحياة ، ولا تبحثوا عن الأمور الزائدة . قيصان بدون أكمام ، ورداء صغير من الكتان ، وغطاء للرأس ، وحزام ، وفروة جلد ،

وعصا الذين يشغلون الوظائف الخارجية ، تكفي ؛ ولزم أيضاً أن نحذركم من أن ترغبوا في إقتناء أي شيء من هذه بصفة خاصة ؛ فإنه في ذلك يكون ذنباً كبيراً » .

ان الرهبان الصالحين الذين يخضعون باتضاع ونسك تحت نير الفقر الرهباني ، ذلك الفقر المطوّب الذي يغنيهم بتجريدهم بصفة مؤقتة . أقول أن هؤلاء الرهبان الصالحين ، عندما يتركون جسدهم الفاني ، سوف يسعدون بمشاركة البطاركة والأنبياء والرسل ، وسوف يستريحون مثل لعازر في حضن ابراهيم ؛ أما الذين يحترثون داخل الأديرة على امتلاك ما يجب أن يكون استعماله مشتركاً مع أخوتهم ، فسوف يقال لهم عند خروجهم من هذا العالم ، كما قيل للغني الشرير في الانجيل ، انهم امتلكوا الخيرات في هذه الحياة ، بينما كان اخوتهم يعيشون في العمل والصوم والنسك والتجرّد ، وأنه من العدل أن يتمتع هؤلاء بنعيم الأبدية ، طالما انهم رفضوا راحة العالم لكي يربحوه ؛ أما هم الذين لم يريدوا إطاعة الإنجيل ، فإنهم لا يستحقون سوى العذابات وبؤس الجحيم الفظيع .

أن القديس أورسيسيوس يبين بذلك كم كان اهتمامه بممارسة

الفقر الرهبانى . انه يؤكد على ذلك أكثر مما يؤكد على أية نقطة أخرى . أنه يوصى بألا يحتفظ أحد بأى شىء غير نافع ، بل بما يكون مسموحاً به فقط حسب القوانين الديرية ، وهو ما يعدّ من الضرورى وحده . يقول أنه إذا كان أحد يمتلك بعض الأثاث ويحتفظ به لديه ، أو يعطيه لأخ آخر ، فإن الاثنين يكونان مذنبين ، ويجب الا يعتبروا من عداد الاخوة ، بل بالحرى كأجراء ، وغرباء ، مغيرين هادمين للنظام الرهبانى .

ويضيف أنه إذا حضر أحد من العالم لكى يدخل فى النظام الديرى ، ويريد أن يحتفظ لنفسه بشىء ما مما كان يمتلكه فى العالم ، وألا يتجرد منه إلا بالموت ، حتى اصلاح الاخوة ، فذلك غير سليم الرأى . بل هو إنسان مخدوع من الشيطان ، وتكون رغبته أن يصير راهباً ضرباً من التهور طالما أنه يريد أن يحتفظ لنفسه بذلك الشىء فى نفس الوقت . يقول :

« لذلك فلنرفض العالم لكى نتبع كأناس كاملين يسوع المسيح مثال الكمال . والذين يتركون أنفسهم تحت سيطرة البخل ، ينظرون إلى فقر يسوع المسيح كحمل ؛ ولكنهم فى ذلك لا يتبعون سوى طمع الفريسيين البخلاء المكروه ، الذين كانوا

يستهزئون بيسوع المسيح عندما كان يكلمهم عن التجرد من أموال العالم .

أن الرهبان لاينقصهم شىء مما تسمح القوانين باستعماله بفضل عناية الرؤساء ؛ لذلك يجب الا يقبلوا شيئاً ما من ذويهم ، أو من أصدقائهم ، ولا حتى قميص أو رداء صغير . وإذا حدث أن احتاج أحدهم إلى أى شىء بحسب القانون ، فإن الرئيسة أو الرئيس يكون المسئول . يلزم أن يعاقب » .

هذا أهم ما ورد فى بحث القديس أورسيسيوس فى النسك . أما الباقى فهو حث على المحبة والتقشف والاقتداء بالآباء القديسين والمحافظة على قوانين القديس أنبا باخوم الذى يذكر سلطته كثيراً .

ومع أنه يوصى كثيراً بالمحبة والوحدة ، فإنه لايرغب فى تلك الصداقات البشرية والطبيعية ، التى تتنافى مع الصداقة المشتركة وتكون امتيازات خاصة . وبصفة خاصة ، عندما يقوم أحد الرؤساء بتأنيب أحد الرهبان ، فان القديس يمنع أى أحد من الاخوة الآخرين من الاقدام على الدفاع عنه بحجة الصداقة أو المحبة ، فيترافع عنه ضد رئيس الدير . يقول :

« لأنه يقال قام من سقطته وأنت تقلبه على الأرض ليرجع

عن تيهانه وأنت فى الواقع تضله . الويل لك يا من تجعل الأعمى يحيد عن طريقه . أنك توحى التشبث بالغرور لذلك الذى يكون قد خضع ، وتملأ قلبه مرارة ، بينما يكون قد ذاق حلاوة المحبة: أنك تفسده بينما يكون قد خضع للنظام ، وتثير حفيظته ضد من لا يبغى سوى تعليمه بحسب روح الله » .

وأخيراً ينهى القديس أورسيسيوس بحثه بهذه الكلمات المؤثرة جداً النافعة للتعليم والتى تبين أنه كان قريباً من نهاية طريقه عندما خاطب رهبانه بها :

« أحدثكم أيضاً بثقة ، يا أولادى الأحباء . منذ أن أراد الرب أن أتحمل قيادتكم ، لم أفتر عن أن أسدى النصح إلى كل واحد على انفراد . وأن أحثكم بالدموع أن تجعلوا أنفسكم مرضيين لله . أننى لا ألوم نفسى أنى أخفيت شيئاً ما مما كنت أعتقد أنه يكون نافعاً لخلاص نفوسكم . والآن استودعكم الرب ، وأتمنى أن تقويكم نعمته وتجعلكم تصلون إلى الميراث السمائى . كونوا متيقظين ، اعملوا بحماس ، لا يغرب عن نظركم أبداً الهدف الذى جعلتموه نصب أعينكم ، وكلوا بأمانة التعهدات التى تعهدتم بها .

أما أنا فانى أشعر أنى ذاهب وأن وقت انحلالى قد قرب .

« لقد جاهدت جزئياً جهاداً حسناً ، أكملت سعيى ، حفظت الإيمان ، ولا يبقى لى سوى أن آخذ إكليل البر الذى أعده لى الله كديان عادل ، فى ذلك اليوم ، كما أيضاً لكل الذين أحبوا البر وحفظوا وصايا أبيهم . وانى أنهى حديثى بهذه الكلمات التى تتضمن كل ما يمكننى أن أقوله لكم : خافوا الرب ، احفظوا وصاياه ، لأنه فى حكمة سوف يفحص كل أعمال الإنسان ، سواء أكانت صالحة أم شريرة » .

✝ ✝ ✝

تلاميذ آخرون للقديس أنبا باخوم

أول من أرسلهم الله للقديس أنبا باخوم ليكونوا كحجارة الأساس فى منظمته الديرية هم: بسنتايز Pcentaēse ، وبسويس Psois ، وسور أو سير Sur ou Syr . وهم لا يذكرون فى تاريخ القديس أنبا باخوم دون أن يضاف إلى ذكرهم بعض المديح .

(١) كان « بسنتايز » قساً أو رئيساً لدير منذ سنة ٣٤٦ . وبعد وفاة القديس أنبا باخوم ، أصبح دعامة للمجموعة ومن أشدهم ثباتاً ، وأكثرهم حماساً من أجل الحفاظ على النظام الرتيب ، حتى يمنع أن يعترى المؤسسة الديرية أى تراخ . ولما كان القديس تيودوروس رئيساً ، كان يستعين به فى أكثر الأمور أهمية . فكان يدفع الرهبان الذين يسقطون فى أخطاء جسيمة أن يذهبوا ليعترفوا عليه أو على « بيكوز » Pécuse . ويذكر أيضاً اسمه ضمن الذين نالوا من الله بصلواتهم ودموعهم شفاء الراهب « سلفان الطيبى » Silvain (أو سلوانس) الذى ضرب بالسكتة المميتة لأنه أساء الظن برئيسه القديس تيودوروس .

(٢) أننا لا نعرف شيئاً خاصاً عن « بسويس » Psois . أن مؤرخ سيرة القديس أنبا باخوم يقول عنه وعن بعض الآخرين أنهم كانوا أقوياء فى ممارسة الفضائل ، وكانوا أبطالا حقيقيين فى التقوى .

(٣) أما « سير » فكان القديس أنبا باخوم قد جعله رئيساً على دير « بخوم » . وكان يمارس هذه الوظيفة فى سنة ٣٤٦ . ويقول القديس جيروم Jérome (أو ايرونيموس) أنه أخذ من الله بواسطة ملاك اللغة الرومانية ، مثل القديس أنبا باخوم والقديس كرنيليوس . ونجد فى مجموعة قوانين القديس « بنوا » ثلاثة خطابات كان القديس أنبا باخوم قد كتبها له بهذه اللغة . وقد توفى فى نفس الوقت مع أبيه ، أى فى سنة ٣٤٨ بعد عيد القيامة بقليل . ويقول المؤرخ « بولتو » أنه عاش أكثر من مائة وعشر سنين .

(٤) وبخلاف الثلاثة تلاميذ المتازين الذين تكلمنا عنهم ، جاء « بيكوز » و« كرنيليوس » ويوحنا وباخوم آخر ليتتلمذوا تحت أمرة القديس . لم يدخل « بيكوز » صغيراً فى المنظمة الديرية ، ولكنه تقدم كثيراً فى الفضيلة فى وقت قصير جداً .

حتى أستحق أن يلقبه أبوه القديس أنبا باخوم بلقب خادم الله عن جدارة . وهو الذى أحضر القديس العظيم تيودوروس إلى طابنيسى ، عندما وجده فى طريقه إلى اسنا (« لاتوبل ») إلى أحد أديرة المتوحدين لزيارته .

والقديس آمون الذى تكلمنا عنه فى سيرة القديس أنبا تيودوروس ، قد علم من « بيكوز » اعلانات كثيرة كان الله قد خصّ بها هذا القديس ، وكان « بيكوز » قد علم بها من القديس أنبا باخوم نفسه . وكنا قد روياها كلها تقريباً فى الفصل السابق (عن سيرة القديس تيودوروس) ، ولكننا نضيف هنا هذا الاعلان الذى لم نذكره .

يروى « بيكوز » أن القديس تيودوروس كان مع القديس أنبا باخوم فى دير طابنيسى ؛ وإذ كان قد شرع فى الصلاة ليلا ، شعر بالنعاس يثقل عليه جداً لدرجة أنه اضطر إلى الخروج من المكان الذى كان موجوداً فيه ليتجول فى الدير حتى تذهب عنه الرغبة فى النوم . ومضى هكذا لغاية باب الكنيسة ، حيث صلى بعض الوقت ، وإذ لم يستطع مقاومة النعاس ، اضطر أخيراً إلى أن يترك نفسه على سجيتها وينام . وبينما كان نائماً ظهر له ملاك وأمره أن يتبعه . فأطاع تيودوروس ، وقام وتبع الملاك فأدخله

الكنيسة ، فرأى فيها نوراً باهراً وعدداً كبيراً من الأرواح السمائية قائمين فى المكان حيث اعتاد الكهنة أن يقدموا الأسرار المقدسة . وأوحى إليه هذا المنظر بخوف عظيم ؛ وفى نفس الوقت قرّبه أحد الأرواح الطوباويين من المذبح ، حيث كان شخص يمتاز عن الآخرين ببهاء مجد أكثر تألقاً ، فوضع فى فمه شيئاً ذا طعم لذيذ جداً لم يذق مثله فى كل حياته ، وأمره أن يتركه فى فمه ليذوب فيه . وبعد ذلك اختفى النور وخرجت الملائكة من الكنيسة . ولكن هذا الطعام السرى ترك فى نفس القديس تيودوروس انطباعا للفرح والتعزية الداخلية البالغة ، لدرجة أنه يمكن الوصف بأنه لايعبر عنها . ومنذ ذلك الحين شعر فى نفسه بقوة جديدة تجعله يعمل كل شىء ويتحمل كل شىء من أجل خدمة ومحبة الله .

وهذه الرواية التى رواها « أوزون » و « إلوريون » إلى أمون عن تقرير « بيكوز » ، جعلته (أمون) يرغب فى أن يكون هذا الأخير (« بيكوز ») أباه الروحانى . وكان يرجوه كثيراً أن يقول له كل ما يعرفه عن القديس تيودوروس ؛ وهو يضيف عندما يتكلم عن فضائله أنه أخذ من الله سلطة عظيمة جداً على الأرواح النجسة . ولم يكن ذلك أمراً غريباً على الراهب

الذى يقول عنه كاتب سيرة القديس أنبا باخوم أنه كان يتألق فى المنظمة الديرية بعظمة قداسته التى أكسبته محبة الإخوة وتقتهم الخاصة فيه ، وهذا ما ظهر فى السهولة التى بها أرجع الرهبان من فزعهم عندما حضر الدوق « أرتيم » Arteme ليعيش عن القديس أثناسيوس الرسولى فى طابنيسى ، ودخل لجأة مع حملة السلام إلى الدير . وقد ذكرنا آنفاً أن القديس تيودوروس كان يرسل إليه والى « بسفتايز » أيضا الرهبان الذين يكونوا قد سقطوا فى بعض الخطـــايا .

(٥) وكان « كرنيليوس » أحد مشاهير تلاميذ القديس أنبا باخوم . وكان يعتبر مع القديس تيودوروس والقديس بترونيوس عن هم أقدس الموجودين فى المجموعة الديرية . لقد كرس نفسه لخدمة الله منذ صباه ، وتدرب بشجاعة على النسك حتى كافأ الله مجهوداته بأن وهبه نعمة عدم القلق بسبب الانشغال وقت الصلاة ، فكان عقله أثنـــاء القداس دائم الالتصاق بالله . والقديس تيودوروس الاسكندرى الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، كان قد شكى ذات يوم إلى القديس أنبا باخوم من أنه لا يستطيع أن يصلى صلاة واحدة ، مهما كانت قصيرة ، ألا ويتيه عقله . بينما كان « كرنيليوس » يقضى أطول الصلوات دون أن يشرد ذهنه . فرد عليه القديس أنبا باخوم قائلا :

« إذا رأى عبد رجلا حراً ، مهما كان فقيراً ، فإنه يشتاق أن يصير حراً مثله . وإذا رأى فقير أميراً يشتاق أيضاً أن يصير مثله ، وإذا رأى أمير ملكا فهو يحسده أيضا على قوته ويرغب فى المُلك . أن كرنيليوس لم ينل من الرب النعمة التى أخذها ، إلا بعد أن حارب كثيراً حروبا عظيمة . أعمل مثلما عمل ، راجيا الله أن يمنحك ما يناسبك بالأكثر » .

وقد أخذه الآب القديس مع تيودوروس عندما ذهب لتأسيس دير « بان » Panes استجابة لترسلات « فيروس » أسقف هذه المدينة . وأراد أحد الفلاسفة فى هذه المدينة أن يتباحث مع القديس أنبا باخوم ، فحضر إلى الدير الجديد ، فأرسل القديس له كرنيليوس ليحدثه . فقال له الفيلسوف :

« بما انك راهب مشهور فى فهم الأمور الصعبة ، وتتكلم بحكمة ، أجب على هذا السؤال : بماذا تحكم على الغريب الذى حضر ليبيع الزيتون فى مدينة « بان » حيث يوجد الزيتون بكميات وفيرة ؟ » فتهم كرنيليوس جيداً ماذا كان يهدف ورد عليه قائلا :

« حقاً انه يوجد زيتون كثير فى « بان » ، ولكن الملح ينقص هنا ، وهذا الملح هو ما جئنا لنحضره لكم » .

فلم يطلب الفيلسوف أكثر من ذلك ، وعاد إلى زملائه لينقل لهم هذا الرد .

كان القديس أنبا باخوم قد ركب سفينة فى النيل ليذهب لزيارة أديرته ، وعند المساء سأل الرهبان الذين كانوا فى صحبته ما إذا كانوا يريدون ان يقضوا جزءاً من الليل فى الصلاة . فوافقوا أولا ، ولكن عندما أطال القديس أنبا باخوم صلاته حتى الصباح ، ظل أحد الإخوة مثابراً على السهر معه ، بينما نام الآخر بعد أن صلى بعض الوقت ، إذ غلبه النوم .

ولما وصل القديس إلى دير « منكوز » Monerse ، استقبله كرنيليوس رئيس وربيبة الدير ومعه الرهبان ، وبعد إظهار آيات الاحترام والمحبة كالمعتاد ، تنحى جانباً بالأخ الذى لم يستطع أن يسهر الليل كله مع القديس أنبا باخوم ، وسأله عما كان يفعله القديس فى الأيام السابقة ، فروى له ذلك ولم يفس كيف غلبه النوم بينما ظل القديس ساهراً حتى الصباح . حينئذ قال له كرنيليوس :

« أيها الرجل الجبان ، كيف وأنت فى ريعان الصبا ، تركت نفسك حتى يغلبك نعوز معتل ؟ » .

ولم يكن يظن ان القديس أنبا باخوم يسمعه ، ولكن الأب القديس الذى كان يسمعه ، أراد أن يعلمه أن يكون أكثر شفقة

نحو الضعفاء ، ولذلك عندما اقترب الليل ، عرض عليه أن يصلى معه ، فصليا حتى الصباح ، وكان كرنيليوس يتألم كثيراً . وعندما رأى ان القديس بدلا من أن يرسله ليأخذ قسطاً من الراحة ، سأله إذا كان يريد ان يحضر صلاة باكر ، اعترف بأنه لا يستطيع ان يصلى أكثر من ذلك إذ كان مثقلا جداً بالنوم . فرد عليه القديس :

« ماذا يا كرنيليوس ، أهكذا تترك نفسك حتى يغلبك نعوز معتل ؟ » .

ففهم من هذه الكلمات إنه كان قد سمعه عندما وجه نفس اللوم إلى ذلك الأخ ، واعترف بأنه قصر فى المحبة وبأن القديس عنده روح الله .

ويوجد فى مجموعة قوانين القديس « بنوا الاينانى » St Benoit d'Aniane خطابان كتبهما له القديس أنبا باخوم كما يقول القديس ايرونيموس . وكان كرنيليوس لا يزال رئيساً لدير « منكوز » عندما مرض ومات بنفس المرض الذى سبب خسائر فادحة فى أديرة طابنيسى ، وهو المرض الذى مات به أيضاً القديس أنبا باخوم .

ومن تلاميذ القديس أنبا باخوم أيضاً : يوحنا وتيتوبس وتيودوروس الاسكندرى وبسنامون وبسارفان وسلفان

وامون وبفنوتيوس واتينودور وايبونيس وتاماس .

راهبات طابنيسى

أراد الله أن يكون القديس أنبا باخـــوم مؤسس أديرة طابنيسى للرهبان ، هو أيضا مؤسس دير الراهبات ، لكى يفتح بذلك طريق الكمال الرهبانى أمام النساء .

كان الأب القديس قد ترك أخته فى العالم . وعندما شاع صيته ، ذهبت إلى الدير ، إما لكى تراه ، أو لكى تتأكد بنفسها من العجائب العظيمة التى حكوا عنها لها أن الله يصنعها بواسطته . وهكذا كانت المحبة الطبيعية وحب الاستطلاع هما سبب جذبها إلى الدير . ولكن الله كان قد أعد لها نصيبا آخر جديراً برحمته ، وسرعان ما تعزى القديس أنبا باخوم بفاعليته .

لما كان القديس لايتصرف حسب ميول الجسد والدم ، ومن جهة أخرى لايتكلم مع النساء أبداً ، فعندما أبلغه البواب أن أخته تطلب الحديث معه ، رفض أولا أن يراها ، وأرسل من يقول لها أن تكتفى بالعلم بأنه حى ، وتعود دون أن تحزن لأنها لم تستطع أن تراه بعيون الجسد . ولكنه لم يرد أن يحرمها كلية من كل نصيحة خلاصية ، فعرض عليها إذا كانت تريد أن تتمثل بأسلوب حياته ، فإن الله سوف يستخدم قدوتها لكى

يجذب فتيات أخريات بالقرب منها ، لتتقدس معهن ؛ وأنها مع ذلك يلزمها أن تزن كل الأمور قبل أن تشرع فى شىء . فإذا كانت تقرر ذلك بعد تفكير ناضج ، فهو يكلف الاخوة ببناء دير لها .

أما أخته التى ما كانت تتوقع أبداً مثل هذا الاستقبال ، قبلت بمرارة ، ولكن الله مسها فى تلك اللحظة بنعمته ، فتبعت نصيحة القديس التى نقلها إليها البواب ، وأرسلت ترد عليه أنها مصممة على أن تتبعه .

ففرح القديس جداً لهذا القرار السريع ، وشكر الله ، وأمر بعض الإخوة المعروفين بتقواهم ، أن يبنوا ديراً . وكان المكان الذى أختاروه لذلك يدعى « من » Men ؛ وهو يبعد قليلا عن طابنيسى على الضفة الأخرى من النيل . ويلزم الا نخلطه بدير آخر للرهبان يدعى « من » أو « تسمن »[1] Tismen كان القديس أنبا باخوم قد أسسه فى أبروشية « بان » .

فى ذلك المكان عاشت هذه الراهبة الجديدة فى مخافة الرب ، فأصبحت فى وقت قليل ، كما كانت ترجو كقول القديس لها ، أماً لعدد كبير من الفتيات اللواتى حضرن للانتظام تحت إدارتها .

(١) بمركز أخميم .

وكانت تعلمن بقدوتها مثلما تعلمن بأقوالها ، وكانت تبين لهن كيف يجردن قلوبهن من كل الامور الأرضية ، حتى يبقين دائماً مرتفعات نحو الخيرات السمائية الأبدية .

واعطاهن القديس أنبا باخوم نفس القانون الذى وضعه للرهبان، باستثناء الرداء الجلدى، فما كن يستعملنه .وكن حليقات الرؤوس،ويغطين رؤوسهن .وكان عملهن اليدوى صناعة الأقمشة من الكتان والصوف لهن وللرهبان .وكان الرئيسة العام للنظمة الديرية يمدهن بالمواد اللازمة ، وكذلك بكل ما يلزم للعيشة .

وما كان أحد من الرهبان يستطيع أن يذهب لرؤيتهن بدون تصريح رسمى . وإذا كان لأحدهم أخت أو إحدى قريباته يريد أن يزورها ، كان يصطحبه إلى هناك أحد الرهبان القدماء من ذوى الفضيلة المختبرة .فكان يطلب أولا الرئيسة ، فتدعو الراهبة وتحضر بصحبة أكثر الراهبات أقدمية ، فيكلمها فى حضورهن بتحفظ شديد وقداسة عظيمة .وما كان مسموحاً له أن يقدم أية هدية ، ولا أن يأخذ شيئاً . وكانت أخبار العالم خارج نطاق الحديث ، فما كان يدور الحديث سوى حول المواضيع التقوية ، وعلى الأخص عن الرجاء فى التمتع بالحياة الأبدية .

وعندما كانت الراهبات تحتاج إلى معونة الاخوة من أجل مبانيهن ، أو من أجل شىء مماثل ، كان أحد الرهبان من ذوى السيرة المثالية يقوم باقتيادهم إلى هناك ،فكانوا يقومون بعملهم بمحبة وبخوف الله ، وكان محظوراً عليهم أن يأكلوا أو يشربوا لدى الراهبات ، فكانوا لذلك يعودون إلى ديرهم فى وقت الطعام .

كان الكاهن والشماس المكلفان بالخدمة فى كنيستهن يذهبان إلى هناك يوم الأحد فقط . وكان أول راهب كلفه القديس أنبا باخوم بالعناية برعايتهن روحياً ، يدعى بطرس ، وكان محترما جداً من أجل سنه الكبير ، وأيضا من أجل قداسة سيرته . كانت روحه وعينيه نقية ، وكانت أحاديثه مصلحة بملح الحكمة الملائكية .

وبعد نياحته ، سلم القديس أنبا تيودوروس الذى كان رئيساً لطابنيسى فى ذلك الحين ، رئاسة هذا الدير وكذلك دير « بشرية » Bechr الذى كان قد أسسه أيضاً للراهبات ، إلى رجل قديس جاد للغاية يدعى « ايبونيس » ، ويقال أيضاً ان « تيتويس » خلفه فى هذه الرئاسة .

كانت النساء تقبل أيضاً فى هذا الدير مثل الفتيات ، كما يظهر ذلك من قرار أم القديس تيودوروس بالرهبنة فيه .

وعندما كانت تتوفى إحدى هذه الراهبات ، كن ينقلن جسدها إلى ضفة النهر وهن يرتلن المزامير ، وعندئذ كان رهبان طابنيسى ، يرتلون المزامير ويحملون أغصان الزيتون والنخيل ، يعبرون النهر ويأخذون الجسد ، فيذهبون لدفنه فوق الجبل حيث كانت المدافن .

ويروى بلاديوس انه كان هناك أربعمائة راهبة ، ومن بينهن القديسة « ايزيدورة » التى بلغت ذروة التواضع . ولم نسرد سيرتها لضيق المجال .

ويقول القديس ايرونيموس ان القديسة مارسيل علمت عن طريق بعض كهنة الاسكندرية أولا ، ثم عن القديس أثناسيوس الرسولى ، وأخيراً بواسطة بطرس خليفته . بأسلوب حياة أديرة القديس أنبا باخوم والعذارى والأرامل ، فلم تستح من الاعتراف بما كانت تعلم انه مرضى للرب يسوع المسيح ، وبعد سنوات عديدة تبعتها « صوفرونى » وآخريات .

وهكذا عرفت مؤسسة راهبات طابنيسى الديرية فى روما حيث بدأت تلك السيدات القديسات فى التجمع على مثالهن ، واعتنقن السيرة المنتظمة ، فمكن يكرّمن حياة الوحدة وسط النساء الشريفات ، وكانت تلك الحياة غير معروف قدرها فيما مضى . ويذكر القديس اغسطينوس عن راهبات طابنيسى أنهن كن يخدمن الله بأمانة وطهارة عظيمة .

† † †

الأديرة الباخومية

تكاثرت الأديرة فى أيام القديس العظيم أنبا باخوميوس ونذكر من بينها ١٢ ديراً كان قد أسسها وورد ذكر بعضها فى هذا الكتيب :

(١) طابنيسى **Tebennisi** قرب قنا فى مواجهة دندره .

(٢) بابو **Pabau** فاو الحالية .

(٣) كينوبسكيوم **Chénoboxium** بمنطقة طيبة (الأقصر) ويقال أن مكانها الآن بلدة قصر الصياد الواقعة فى محافظة قنا .

(٤) منكوز Moncose نواحى فرشوط بمحافظة قنا .

(٥) بخنوم Pachnum تقع بعد دير أرمنت .

(٦) طيبة Thèbe وكانت عزبة تملكها عائلة القـــديس بترونيوس تلميذ القديس أنبا باخوم .

(٧) تسمين Tismène بالقرب من بانابوليس القديمة أى بالقرب من إخميم الحالية .

(٨) كايس Caius بالقرب من أخصنا قرية الشيخ عبادة مركز ملوى .

(٩) أوبى Obi بالقرب من الأشمونين مركز المنيا ، وقد اشترك فى تأسيس هذين الديرين الأخيرين القديس أنبا تيزدورس .

(١٠) بطلمايس Ptolémais وهى المنشية الحالية قرب سوهاج وكانت قديما من أكبر مدن الصعيد .

(١١) Hermutis أو Hermonthis وهى أرمنت الحالية .

(١٢) Bechré «بشريه» دير للراهبات ، قرب فاو وهو ثانى أديرة الراهبات فى النظام الديرى .

أودع بدار الكتب تحت رقم ٥٠٥٥ لسنة ١٩٧٥